روجيه غارودي

نداء : مشروع الامل

اننا نعاني من العيش في عالم لا هدف له .

وما يسمّى سياسة النمو هو سياسة غايتها تشغيل الآلة . حتى ولو كانت آلة بلا فائدة ، او ضارّة ، او مميتة . ان هناك مبدأ غير معترف به : فكل ما هو تقنيا ممكن ، هو ضروري ومرغوب فيه : صنع قنابل ذرية ، السفر الى القمر ، تدمير المستقبل بالنفايات الاشعاعية النشاط في المولدات النووية .

نموّ لماذا ؟ نموّ لمن ؟

— لارباح بعض الافراد بالتلاعب بالجميع وبتكييفهم .

ليس صحيحا ان النمو الاقتصادي يسمح بتجاوز الازمات : فهو يخلقها . انه يقود الى توزيع للسلطة والامتيازات يزداد تفاوتا .

وليس صحيحا كذلك ان بالامكان وقف النموّ . في حين لا يملك مليارات البشر في « العالم الثالث » وملايين البشر في البلدان « الغنية » وسائل حياة انسانية حقا .

ليس الامر وقف النموّ ، بل توجيهه لخدمة تفتح الانسان ، لا انحطاطه .

لقد خلقت السوق الغاب الحيواني من جديد .

وفي هذا الغاب ، يفترس الاقوياء الضعفاء : فالمنشآت الكبرى تسحق الصغرى ، والمعدمون هم تحت رحمة المالكين . والعمالقة الضواري في المجتمعات المتعدّدة الجنسيات يستولون على العالم ويفلتون من كل رقابة للشعوب .

وفي مثل هذا العالم ، ثلاثة مليارات من البشر مستغلون . ومليارات منهم جائعون .

والاقتصاد افسده تجميع السلطة على حساب غنى الوجود وتفتح الحياة .

والغاب نفسه يسود على المستوى السياسي .

والدعاية نفسها للقوى الكبرى المهيمنة لحساب مرشحين او برامج جاهزة الصنع ، والمصادرة نفسها لمبادرات القاعدة بتفويض للسلطة مستمر ، وكلي ، وممهن ، والتصدّع نفسه بين المتلاعبين والمتلاعب بهم ، بين القادة والمقودين . وليس ثمة في القاعدة من يملك امكانية المشاركة في وضع خطط المستقبل ومراقبة توجيهها او اولياتها . والقرارات التي يتوقف عليها مصير الجميع ، من بناء المولدات النووية حتى تجارة الاسلحة ، انما تؤخذ خارج كل رقابة من المعنيين .

اما الثقافة والتعليم فوظيفتهما الجوهرية اعادة انتاج هذا الغاب ، بمراتبه ومنافساته ، مقلصا الى ابعد حدّ التأمل في الغايات ، ومستخدما العلوم والتقنيات لصنع سلع والتلاعب بالبشر .

في البلدان الرأسمالية ، الانسان مشوّه بهذا الارتهان الثلاثي للملكية والسلطة والمعرفة .

والبلدان الموصوفة بأنها « اشتراكية » (باستثناء الصين) تبنّت المفهوم الفرداني نفسه للانسان ، والقطع نفسه بين القادة والمقودين .

و« المساعدة المزعومة للعالم الثالث » بدلا من ان تقيم « حوارا حقيقيا بين الحضارات » لتحديد توجهات المستقبل ، تهدف الى دمج البلدان المستعمَرة سابقا في الطراز الغربي للنموّ الاعمى الذي يحافظ ، بل يفاقم ، الوان اللامساواة بين الطبقات ، كما يفاقمها بين الامم .

ولم يؤد امتلاك البترول ومواد اولية اخرى من قبل بلدان غير غربية ، الى اعادة توزيع للاوراق تضع حدا لجميع آثار الاستعمار والعنصرية ، وتتيح نهضة

وازدهارا لثقافات اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، بل ادى ذلك الى دمج اوثق لبعض البلدان في السوق العالمية والى مبادلة المواد الاولى بالاسلحة التي تستعمل لتعميق التمييزات العنصرية والاستغلالات الطبقية ، وتسهيل الانقلابات العسكرية .

تلك هي الفرص التي فاتت من تاريخ نهاية هذا القرن العشرين ، فلا تطوّر العلوم والتقنيات ، ولا القضاء على الرأسمالية ، ولا هزائم الاستعمار ادت الى ابراز مشروع جديد للحضارة او معنى جديد للحياة .

اننا نريد ان يكون لحياتنا معنى ، ولتاريخنا هدف: نريد ان يشارك كل منا في اكتشاف ذلك المعنى، وتحقيق هذا الهدف .

نريد ان يصنع الجميع تاريخ الجميع ، والا يفرضه بعض الافراد .

وليس ممكنا تعديل النظام باصلاحات جزئية .

بل يجب ان تغير مبادئه وبُناه تغيّرا جذريا .

والمباديء القاعدية لهذا العالم اللاانساني هي مباديء « النهضة » ، اي ميلاد الرأسمالية والاستعمار ونزعة انسانية مغلقة .

والقضاء على الرأسمالية بمبدئه نفسه ، يعني محاربة اقتصاد السوق ، اي اقتصاد قائم على ربح بعض الافراد ، واستغلال الجماعات ، وذبح الطبيعة المعتبرة مستودعا ومزبلة ، وحطّ الانسان ، المستغَل كعامل ، والمتلاعب به كمستهلك .

والقضاء على جميع مخلّفات الاستعمار ، هو اقامة حوار حقيقي للحضارات مع اللاغربيين لتعلم من ثقافاتهم علاقات اخرى مع الطبيعة لا تكون فحسب علاقات تقنية ، بل حيوية ، وعلاقات اجتماعية لا تكون كليانية ولا فردانية ، بل جماعية .

وخلق نزعة انسانية منفتحة هي وضع ثقافة لا تكون مصنوعة فحسب من اجوبة الماضي ، بل من اسئلة يطرحها اختراع المستقبل ، ثقافة لا تكون بعد امتياز بعض الافراد وزينتهم ، بل تكون امكانية تفتح انساني للجميع ، ثقافة لا تغلق الانسان على نفسه ، بل تفتحه على ابداع لا نهاية له للمستقبل بابراز ما هو الهي في الانسان ابرازا شعريا ورسوليا .

ان المهمة الاولى هي اعادة صنع النسيج الاجتماعي الذي فتّتته الرأسمالية الكاسرة ، والاستعمار المدمر للثقافات ، والفردانية الخالية من المحبة .

واعادة صنع النسيج الاجتماعي هي ملء الفجوة بين الافراد المفتّتين والدول الكلية القدرة لمجتمعاتنا التي لا تقوم فيها الا علاقات عمودية من التسلسل وعلاقات افقية من المنافسة .

اعادة صنع النسيج الاجتماعي هي ان نخلق ، انطلاقا من مبادرات القاعدة ، وعلى جميع مستويات الاقتصاد والسياسة والثقافة ، جماعات مسؤولة تأخذ على عاتقها حياتها الخاصة لتحدّد من جديد الاهداف الانسانية لكل نشاط اجتماعي ومناهجه للتنظيم والتسيير .

على صعيد العمل ، في المنشآت ، والجامعات ، والادارات : « مجالس للتسيير الذاتي ، مهمتها ان تصبح مسؤولة عن تعيين القادة ، وتحديد طرائق العمل واشكال النظام ، حتى لا تتقرر اهداف عمل شعب برمته « من فوق » على يد مالكين او تكنوقراطيين او ديوانيين .

على صعيد الاستهلاك ، « جماعات قاعدية » اي تنظيمات لا تكون خاصة ولا حكومية ، بل مشتركة ، يديرها المستعملون انفسهم ، لمراقبة الاسعار وتنظيمها ، وتسيير النقليات والتأمينات والايجارات ، حتى تبرز الحاجات عن غير طريق فوضى السوق والتلاعب الدعاوي للمنتجين وقرارات ديوانية ممركزة واستبدادية .

على صعيد الثقافة ، « مراكز للمبادرة » من اجل التوجيه ورقابة المدارس والجماعات والتلفزيون والراديو ، والصحافة والنشر ، والمسرح والرياضة ، والمستشفيات والصحة والمنشآت الصيدلية ، وبيوت الشباب والثقافة ، حتى تبرز هذه الثورة الثقافية مشروعا جديدا للحضارة .

والجهاز المركزي ، المكلف بتحديد الاختيارات الكبرى والاولويات في مادة التخطيط والتشريع الاجتماعي ، والعلاقات الخارجية ، والتربية والثقافة ، لا يمكن ان ينبثق الا عن جماعات العمل هذه .

وهكذا فان النظام البرلماني القديم القائم على التمثيل بواسطة « الدوائر الاقليمية » ـ وهو تركة المجتمعات الزراعية والذي يقود اليوم الى تفتيت شعب ما الى مواطنين مجرّدين ـ يجب ان يستبدل بتمثيل « للنشاطات الاجتماعية » في « مؤتمر لمجالس العمال اليدويين والثقافيين » .

على هذا النحو ، يمكن ان يولد مفهوم جديد للسياسة ، لا يكون بعدُ تقنية الوصول الى السلطة والمحافظة على السلطة بالتلاعب او بقمع الجموع ، بل يكون ، انطلاقا من القاعدة ، تأملا في غايات المجتمع وتنظيما للمجتمع لبلوغ هذه الغايات .

وهذا المفهوم هو نقيض الفوضى : فهو لا ينهض على مباديء فردانية ، بل ينهض على المشروع الجماعي لاعادة صنع النسيج الاجتماعي .

ـ انه لا ينكر ضرورة « تفويض السلطة » ، ولكنه يستبعد فقط التفويض المستمرّ والاجمالي والممهّن الذي يقود دون ريب الى هيمنة فريق قائد مقطوع عن الشعب ، يتحدث ويتصرّف باسم الشعب من غير ان يستشيره ، في الحكومات والبرلمانات والاحزاب .

ان اي جهاز مركزي لا يستطيع ان يضطلع الا بدور التنسيق والاعلام والتثقيف ، وليس بدور القائد .

ولتجنب الاشكال المخادعة والضاغطة لتفويض السلطة ، اي الارتهان السياسي ، يحسن انشاء :

ـ دوران للمثلين ، يمنع الانتخاب لاكثر من دورتين .

ـ تفويض آمر مزود بروزنامة تنفيذ بالنسبة لاي فرد يسعى الى منصب تمثيلي ، وامكانية فسخ آلية اذا لم تنفذ التعهدات المقطوعة .

ـ اعلام مستمر يقوم على تعددية الاختيارات : فهناك على كل صعيد او في كل برنامج بضعة فرضيات تقدم، مع النتائج المحددة الناتجة عن كل فرضية .

ـ تثقيف مستمر ، لا يؤمّن فقط الدوران السياسي، بل يؤمن الدوران الاجتماعي : شهر من التدريب الثقافي كل عام لكل عامل او مستخدم ، والزام كل طالب او مدرس بان يعمل دوريا في المنشأة او في مركز البحث، حتى لا يكون هناك عمّال يعملون في كل الاوقات ، ولا طلاب ولا معلمون ولا قادة يعملون في كل الاوقات .

أيقال ان هذا يعني طلب تغيير عميق لاسلوب حياتنا؟ بلا ادنى شك : انه اتهام جذري للفردانية والانانية اللتين هما ، منذ خمسة قرون ، مبدأ مجتمعاتنا الغربية .

ولكن الرهان هو بقاء الكرة الارضية ، وبقاء كل واحد منا .

ان الثورة الوحيدة التي لا بد منها اليوم ، لكي تستمر المغامرة الانسانية استمرارا واحدا ، هي بهذا الثمن .

اننا لن نغيّر العالم من غير ان نغير انفسنا ، في الوقت نفسه وبالحركة نفسها .

كيف السبيل الى بلوغ مثل هذه الاهداف ؟ كيف السبيل الى ابراز مثل هذا المشروع الحضاري وتحقيقه ؟

من المهم الا نتكل على آخرين ، على مستوى الوسائل وعلى مستوى الغايات ، لنصنع تاريخنا الخاص .

ان التحديد الذاتي للغايات ، والتسيير الذاتي للوسائل ، في مجموع الحياة الاجتماعية ، لا يمكن ان يتحققا ما دامت قائمة الملكية الخاصة للوسائل الكبرى للانتاج والنقل والتسليف والتبادل . ولا يمكن ان يتحققا كذلك اذا اصبحت هذه الملكية حكومية ، منقولة الى فريق من التقنوقراطيين والديوانيين .

ان الاشتراكية ذات التسيير الذاتي لا تتوافق مع رأسمالية الغرب ولا مع دولانية الشرق

والممكن الوحيد ، في الساعة الراهنة ، هو التسيير الذاتي « للصراعات » .

وتجربة اضرابات عدة من طراز جديد تثبت ان هذا ممكن .

والتسيير الذاتي للصراعات هو نقيض الوهم البرلماني (اعطونا اصواتكم نمنحكم الاشتراكية ! »

ونقيض الوهم الحزبي (« انتسبوا وردّدوا شعاراتنا ، وسنقوم بالباقي ») .

والتسيير الذاتي للصراعات هو تطوير مبادرات القاعدة ، في مكان العمل ، حتى لا نكتفي بالصراعات الدفاعية الضرورية وحدها ، بل لنشكل المجالس التي تهيىء السلطات ـ المضادة لادارة المنشآت وتسييرها ، ولنلحق في جميع قطاعات الحياة الاجتماعية ، جماعات قاعدية على درجات مختلفة من الدمج .

ولا يمكن للاشتراكية ان تتحقق بالمفرّق ، لان الاواليات التي تنظّم النظام يمكن ان تخمد التجارب المنفردة . ولكن يجب ان نكون مستعدين ، من حيث وعي الاهداف ، وتنظيم السلطات ـ المضادة ، لان نأخذ بيدنا مصيرنا الخاص ، في حالة ازمة عميقة وتحريك شعب برمّته .

في عام ١٩٦٨ ، لم يكن أحد مستعدا لفتح منظور الاشتراكية تقوم على التسيير الذاتي ، ولا لتشغيل المنشآت والادارات والثقافة بقواعد اخرى غير قواعد ارباب العمل والدولة .

اما المسألة اليوم ، فهي ان نتحرك بحيث لا نؤخذ مرة اخرى على حين غرة ، في « ظروف »مماثلة (ليس هناك الا شك قليل في الا تتكرّر)

ان الاختيارات التي تفرضها او تقترحها علينا «الدول» او الاحزاب ليست على مستوى الازمة ولا هي تستطيع حلها . ان هذه الاختيارات مصنوعة سلفا من الخارج ، من فوق .

لقد بلغت الشعوب رشدها . واصبح مما لا يحتمل اكثر فاكثر ان يقرر تاريخها وحياتها وان يصنعا على ايد غير أيديها .

ومن الضروري اليوم ان يشارك كل فرد في القرارات الرئيسية التي يتوقف عليها مصيره ، بغير اقتراع وهمي، كل اربع سنوات او سبع .

ومن الممكن خلق ثقافة وتهذيب يساعدان كل انسان ، وكل البشر ، على ان يكونوا مبدعي المستقبل .

ان من الممكن تغيير الحياة .

ونحن نستطيع ، منذ الآن ، البدء بتحطيم منطق النظام الذي يحيلنا الى العجز حين يعزلنا .

والخطوة الاولى : هي الانطلاق للاقاة الآخر ـ بقبول

اختلافه ـ للمشاركة في خلق جماعات العمل والاستهلاك والثقافة هذه .

فلنخلق ، في وجه غاب المنافسات والمراتب الخانقة، هذه العلاقة الانسانية الجديدة ، هذا النسيج الاجتماعي الجديد ، وستتراجع السلطة الخارجية .

لنكن معا مسؤولين ، والاّ كنا مقودين .

فمعكم ، وبكم ، وحيث تكونون ، يمكن للمستقبل والامل ان يبدأ اليوم بالتحقق .

ان هذا الكتاب مشروع . اي بدء عمل . وهو لا يزعم انه يحمل وصفة ـ معجزة لصنع مجتمع المستقبل.

انه يدعو الى تأمل اساسي في مباديء مجتمعنا نفسها ، وفي الاسباب التي من اجلها قادتنا هذه المباديء الى طريق مسدود .

وهذا المشروع ـ المضاد ـ مشروع الامل ـ قابل للتحقيق . انه ممكن بين ممكنات اخرى . وهو يطمع في دعوة كل فريق وكل فرد الى اضافة اسهامه النقدي والمبدع في وضع مشروع جديد للحضارة وفي تحقيقه .

والمسألة التي من اجلها نطلب معونتكم هي مسألة التنسيق والاخصاب المتبادل للمبادرات والتجارب .

هل تحسون مثلنا الحاجة الى مركز للاتصال والتبادل ، والى مجلة او على الاقل نشرة تسمح باطلاع كل شخص على افكار جميع الآخرين وانجازاتهم ؟ هل تحسون مثلنا الحاجة الى ارهاف الحسّ لدى طبقات متنامية من الرأي العام حول ضرورة ان يشعر كل فرد شخصيا بانه مسؤول عن التغيير التاريخي الذي لا بد من احداثه وعن ضرورة المشاركة في ذلك ؟

هل تريدون ان تخلقوا مع ألوف الآخرين ، الذين تتنادى أيديهم للقاء ، الخلايا الحية الاولى للنسيج الاجتماعي الجديد ؟..

اذا كنتم تريدون ذلك ، فان بامكاننا ان نحقق معا ، خارج التخطيطات التقليدية ،هذا التجمع للطاقات الجديدة .

ـ اية مبادرات خلاّقة تقترحون ؟

ـ ما هي امكاناتكم للعمل الشخصي في هذه الحركة ؟

ـ اي دعم مالي يمكن ان تضيفه الى الاقلاع ؟

ان المشروع هو بين ايديكم . ولا يستطيع احد منا ، اذا لم يحمل تعهده الشخصي ، ان يتهم آخر بالاخفاق .

أجل ، معكم ، وبكم . وحيث تكونون ، يمكن للمستقبل والامل ان يبدأا اليوم بالتحقق .(*)

(*) هذا الفصل هو خاتمة كتاب « مشروع الامل » الذي يصدر هذا الشهر عن دار «الآداب» ، وقد ترجمه عن الفرنسية الدكتور سهيل ادريس .

صاحب خليل ابراهيم الضفاف

خذيني .. خذي اسمي .. شفاهي
على عتبة الريح عبر الممرّات
ليلي يمر على النخل يرسم بالمستحيل حياتي

* * *

هتفت : أجيء وقلت :
سأحفر فوق جفوني بدمعي اخضرار النهار
تغنّت ستائرنا الغافيه
على كفي المتعرق رفّت طيوف
ولو .. آه .. لو تعرفين ؟
ولكنّ حلم الضفاف توارى على غربة نازفه
وكنت ربيعا تكابر فيه الفصول
أيا آمرأة ذابت الكلمات بصدر الوسادة
فما أخضرّ دمع
ولا رقصت في الدماء ضفيره
اشمّ عطور المساء
تأوه وهج الغيوم
وكنت على ضفة النهر تحت الرّذاذ
ألم المنى .. قطرة .. قطرة
ويعبر خوف الحروف شفاهي
يمر على باب داري
يواري شحوب اللقاء

*

ويكبر خوف الشفاه
ترى أيعود
وأمسح عن وجهه اثرا للغبار
ألمّ له في سلال الرموش نجوم

*

ترى أ .. يجيء على غيمة للصباح
تطرّز آفاقنا
لتنمو زهور الحديقه
أذوب بضحكته
لتكبر فرحتنا في دمي
ترف جناحين
نطير .. نطير
أشدّ الضفيرة في جُنحه
ونعبر فوق النجوم
واكتب في دفتري حرف حبي
أخط بجفني اخضرار اللقاء

بغداد